مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 11 عدد 2 السنة :2012

خطاب طلب العلم في الحديث النبوي الشريف ـ مقاربة تداولية ـ

Knowledge seeking discourse in the prophet's Hadith - Pragmatic approach-

د. سارة بوفامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

ملخص الدراسة:

تقف هذه الدراسة عند عينة من الأحاديث النبوية التي توجه المخاطبين إلى طلب العلم، وتعلي من مكانة طالبه، وتعمل على تحليل هذه الخطابات تحليلا يتجاوز التحليل اللغوي إلى تحليل المقامات والسياقات المحيطة بالخطاب النبوي الذي يتخطى الحدود الزمنية ويبقى حاملا لصفة الفاعلية منذ صدوره إلى أن يرث الله الأرض وما عليها لما في الحديث النبوي من حجية على المسلم تأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد القرآن الكريم كيف لا وهو ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾]النجم: 3، 4[.

إذن ,هذه الفاعلية مستمرة الأثر والتوجيه في حاجة إلى دراسة متكاملة تشمل الخطاب و المخاطِب والمخاَطَب لأجل الكشف عنى جدوى التأثير في زمن التلقي الأول وتراجع هذه الجدوى حاليا ومحاولة الكشف عن أسباب هذا التراجع وكيفية إعادة تفعيلها من جديد وإثارتها في النفوس والعقول لتؤتي ثمارها في زماننا وتحيي النفوس وتفيقها من سباتها العميق وتفكيرها السلبي العقيم تجاه مكانة العلم والعالم التي باتت تتراجع بشكل رهيب في المجتمعات الإسلامية والتي تعتبر المسبب الأول لتراجع المسلمين في مجالات شتى.

ولأجل الإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدت المقاربة التداويلة بعدها منهجا إجرائيا يتميز بشمولية تتجاوز الجملة والنص إلى ملابسات الخطاب ومحاورة اللغة وهي في حال الاستعمال، وبهذا فإنها تولي اعتبارا لكل من المخاطِبِ والمخاَطَبِ باعتبارهما محوري الحدث التواصلي، كما تهتم بظروف الكلام وسياقاته المختلفة، بغية الكشف عن الخطاب وملابسته في حدود الآفاق الزمنية والمكانية التي نشأ فيها، متجاوزة سؤال البنية والدلالة إلى سؤال المقصدية والوظيفية.

Abstract

This study addresses a sample of Hadiths that direct people to seek knowledge and raise their status. The studyalso analyses these discourses beyond

linguistic analysis to the analysis of situations and contexts surrounding the prophetic discourse, which transcends the time limit and remains effective from the time it was issued until the end of humanitydue to the hadith's authority over the Muslim, which comes in second place immediately after the Holy Koran, especially that "Nor does he speak out of desire, indeed it is not except a Revelation which is revealed." (AN-NAJM, verses 3&4)So, this effectiveness, which continues to have effect and guidance, needs to be fully studied, including the speech, the addresser, and the addressee in order to detect the efficiency of the effect at the time of the first receipt and the regression of this efficiency now.We are trying to reveal the causes of this regression and how it can be reactivated so that it will yield results in our timeand awaken people from their negative and sterile thinking about the status of knowledge and the world, which is deteriorating terribly in Muslim societies and is the primary cause of Muslims' decline in various fields.To address this issue, the pragmatic approach adopted a procedural approach characterized by inclusiveness that extended beyond the sentence and text to the context of the discourse and the language, which in the event of use.It thus considers both the addresser and the addressee as the focal point of the communication event, as well as the various context and circumstances of the discourse, to detect the discourse within the time and space perspectives in which it arose, going beyond the question of structure and significance to the question of purpose and function.

مقدمة:

التداولية ليست مجرد دراسة للكلام بالمصطلح السوسيري[1]، ولكنها في الحقيقة دراسة للغة في كليتها، بما فيها الكلام وتعد التداولية حقلا متداخلا يعمل على دراسة اللغة وهي في حال الاستعمال فهي "ليست نظرية لتحليل الخطاب وإنما هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب كما أن مصطلح التداولية يشمل دراسة اللغة بعدها ظاهرة تواصلية، اجتماعية خطابية، حجاجية"[2]. فالتداولية حلقة وصل بين حقول معرفية متعددة، فتتصل بعلوم التواصل واللسانيات والفلسفة التحليلية وعلم النفس المعرفي وغيرها.فاللغة من منظور تداولي هي نشاط يمارسه الإنسان ضمن سياق متعدد الأبعاد، والسياق هو منتج المعنى فالبنية اللغوية الواحدة من قبيل "صباح الخير" مثلا بإمكانها أن تحمل دلالات متعددة وأن تفهم بطرائق مختلفة بتعدد السياقات التي وردت فيها، ولها القدرة على استدعاء جوانب غير لسانية للوصول إلى القصد.

[1] التداولية من أوستين إلى غوفمان: فيليب بلانشيه.تر صابر حباشة.دار الحوار، سوريا، ط1، 2007، ص56.

[2] خليفة بوجادي، في اللسانيات التدوالية، المرجع السابق، ص69.

تعددت المصطلحات الدالة على التداولية كما تعددت تعريفاتها وسأكتفي بعرض تعريف مسعود الصحراوي قائلا: "التداولية مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية. الخ"[3].

1. نظرية أفعال الكلام:

كثيرا ما تعكس اللغة علاقات النّاس، وذلك من خلال الأفعال التي تنجزها بعض التلفظات التي تُتيحها استعمالات للغة، ويقصد بالفعل الكلامي "كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوة على ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية (locutoires actes) إلى تحقيق أغراض إنجازية (illocutoires actes)كالطلب والأمر والوعد والوعيد... وغايات تأثيرية (perlocutoires actes) تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا؛ أي يطمح إلى أن يكون ذا"[4] تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسساتيا ومن ثمة إنجاز شيء ما.

تعد نظرية أفعال الكلام من أهم المحاور التداولية المعاصرة، حيث إن مؤسسها **أوستين** يعطي مكانة كبيرة لدور اللغة وأفعالها الكلامية في صنع الأحداث ونقل المعنيين من مستوى التلقي إلى مسارح الفعل والتجسيد؛ وتكتسي هذه الأفعال قيمتها خاصة عندما يكون الخطاب من ذوي الكفاءات في المحاججة والإبانة[5].

وهي فكرة أسس لها أوستين، مضمونها أن وظيفة اللغة الأساسية ليست تعبيرا عن الأفكار أو وصفا للعالم بقدر ماهي مؤسسة تعمل على تحويل الأقوال إلى أفعال ضمن سياقات. إذن، فنظرية أفعال الكلام ثورة "ضد الفكرة القائلة أن وظيفة اللغة هي وصف العالم – الإيهام الوصفي – وأن كل الملفوظات التقريريّة تقوم على ثنائية الصدق والكذب، فالعكس من ذلك: إن وظيفة اللغة هي التأثير على الواقع، والسماح لمن ينتج الملفوظات إنجاز هذا الفعل، وفي هذه الحالة لا تخضع الملفوظات الثنائية للصدق والكذب[6] "بل تخضع هذه الأفعال الإنجازية لمعيار النجاح والفشل.

---

[3] **مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، دط، 2020م، ص11.**

[4] **مسعود صحراوي: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد 1432هـ-2011م،**

[5] **محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2008م، ص181-182.**

[6] **Jacques Moeschler, Antoine Auchlin : Introduction à la linguistique contemporaine, 2e éd., Armand Colin, Paris 1997-2000, p. 135.**

قسم أوستين أفعال الكلام أولا إلى أفعال تقريرية وأفعال إنجازية ثم طور من نظريته ليقسم أفعال الكلام إلى ثلاثة أقسام هي[7]:

- **الفعل القولي (الصوتي، أو اللفظي، acte locutoire)**: أي فعل إنتاج الأصوات وتركيب الكلمات في بناء يلتزم بقواعد اللغة وبحمل دلالة معيّنة.
- **القول الإنجازي (acte illocutoire)**: أي الفعل الذي ننجره أثناء القول ويراد به مقصد المتكلم.
- **الفعل التأثيري (acte perlocutoire)**: أي الأثر غير المباشر الذي نحققه بالفعل؛ ذلك عندما يحدث الكلام أثرا كالاستمالة بالمحاججة والإقناع بالقسم.

2. مرحلة النضج: تطوير سيرل نظرية أفعال الكلام

ثم جاء **سيرل** فأضاف لهذا الاتجاه إضافات مهمة وتعديلات مصطلحية ومنهجية وإجراءات تحليلية تتمثل في التمييز بين ما أسماه الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة "، فالأفعال الإنجازية المباشرة عنده هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم. فيكون معنى ما ينطقه مطابقا مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول، وهو يتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معا، أما الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم فالفعل الإنجازي يؤدى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر[8].فالمتكلم لا يقصد ما يقول فحسب بل يتعدى قصده ما قاله إلى ما هو أكثر منه، فالأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي. وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم[9].

أ- تصنيف سيرل للأفعال الإنجازية:

أعاد **سيرل** النظر في تصنيف أوستين لأفعال الكلام، ولربما يعود ذلك لاختلاف الهدف منها -كما يرى سيرل- فبالإضافة إلى نجاح الفعل والقيام به، كذلك، وجه سيرل هذا التصنيف باعتبار اتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم من جهة وبناء على عمق التنظير في قضية شروط نجاح الفعل الكلامي.

---

[7] **محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص183.**

[8] **ينظر": محمودأحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2002، 80-81.**

[9] **المرجع نفسه: ص 82.**

ب- شروط نجاح الفعل الكلامي :حدد سيرل شروط النجاح كالآتي [10]:

- **الشرط التمهيدي:** وهو شرط تحضيري يسبق أداء الفعل الكلامي، مثلا فعل الشكر يجب أن يكون المتكلم مدركا أن المخاطب قد فعل شيئا يعود بالنفع. ويتحقق الشرط التمهيدي عندما - :يكون المتكلم أو المتلقي "قادرا" على إنجاز الفعل-. لا يكون واضحا لكل من المتلقي أو المتكلم أن المتلقي سينجز الفعل المطلوب في.
- **شرط المحتوى القضوي:** يجب أن يكون محتوى اللفظ بالنسبة للفعل –الوعد والرجاء- دالا على حدث مستقبلي، أي أن يكون الفعل منجزا مستقبليا يؤديه المتكلم.
- **الجدية والإخلاص:** ويتحقق حين يكون المتكلم "مخلصا أو صادقا" في أداء الفعل الإنجازي فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يطيق.
- **الشرط الأساسي:** هو أن يكون المتكلم عازما على تحمّل تبعات إنجازه "ويتحقق حين يكون المتكلم يريد التّأثير في المتلقي لينجز الفعل، وينجح الفعل الكلامي في تحقيق التأثير والإقناع الذي يتوخاه المتكلم حين يصل المستمع إلى القصد الذي يبتغيه المتكلم ثم يقوم بإنجازه.

ت- اتجاهات المطابقة[11]:

- من الكلمات إلى العالم: حيث يتحقق نجاح إنجاز الفعل في حالة تطابق المحتوى القضوي للفعل الإنجازي مع واقعة مستقلة حدثت أو تحدث في العالم الإنساني، كما يحدث عند الإخبار عن واقعة أو وصفها .

- من العالم إلى الكلمات: يتحقق نجاح الفعل في المطابقة بتغيير العالم ليطابق المحتوى القضوي للفعل الإنجازي، كما يحدث في فعل الوعد .

- اتجاه المطابقة المزدوج: يتحقق النجاح في المطابقة بتغيير العالم ليطابق المحتوى القضوي مع إمكانية قيام الفعل الإنجازي والفاعل بدوره يسمح بتطويع المحتوى ليتلاءم مع العالم .

- اتجاه المطابقة الفارغ: هنا لا توجد مشكلة في نجاح تحقق المطابقة بين المحتوى القضوي والعالم؛

---

[10] ينظر: المرجع نفسه، ص74-75. /ينظر: - علي محمود حجى الصراف، في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1431هـ-2010م، ص 52-53.

[11] /آن روبول و جاك موشلار : التداولية اليوم، تر :سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر والطباعة، بيروت، ط1، 2003، ص، 29. ينظر - علي محمود حجى الصراف، في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص24.

لأنه عموما يقع القول مع افتراض حصول المطابقة قبل ذلك.

3. أفعال الكلام وقوتها الإنجازية في خطاب طلب العلم في الحديث النبوي الشريف :

أ- خطاب طلب العلم في الحديث النبوي الشريف:

يعد الحديث النبوي الشريف واحدا من أبرز الخطابات المؤثرة في تغيير توجهات المخاطب لذلك هو مادة لغوية ثرية لتعليم آليات الخطاب الفعال ومصدرا لاستنباط الأدوات اللغوية وغير اللغوية المصاحبة للخطاب القادرة على توجيه المخاَطَب نحو مايريده المخاطِب. ولأن التداولية في مفهومها الشامل هي دراسة الفعل الإنساني القصدي فهذا هو المطلوب فعلا من الباحث وهو يسعى لفهم الخطاب النبوي، السعي نحو المقصد.

إذن فالخطاب النبوي مادة لغوية يظهر فيها الحدث التواصلي وأثره خاصة أنه استطاع ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينشئ حدثا تواصليا غير منقطع مع مخاطبيه، ويحافظ على استمرارية التفاعل والتأثير،

مما ييسر للمحلل تطبيق المقاربة التداولية وبالأخص أفعال كلام، وقد خُصت الدراسة بعينة من الأحاديث المرتبطة بطلب العلم والغاية منه ومكانة طالبه، وقد اخترت هذه المدونة بالتحديد يقينا مني أن هدف البحث العلمي هو تغيير الواقع البشري إلى الأفضل وأن تدهور علاقة المسلم بالعلم هي السبب الأول في تراجعه على جميع الأصعدة تقريبا، فما سبب تخلي المسلم عن العلم مع أنه مطالب به شرعا والقرآن الكريم والحديث النبوي صريحان في ذلك. ولماذا تراجعت استجابة المسلم لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وما السبب في فتور التأثير الذي كان سببا في بناء الحضارة الإسلامية في العصور الأولى.

كما يجب التنويه إلى فكرة مهمة، أنه لا يمكن تحليل الحديث النبوي بمعزل عن القرآن الكريم فالسنة النبوية تستمد قوتها الفعلية منه، والخطاب النبوي فعل إنجازي لأفعال الكلام المنشئة للخطاب في القرآن الكريم.

فقوله صلى الله عليه وسلم: " **عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:سلُوا الله علمًا نافعًا، وتعوَّذوا بالله من علمٍ لا ينفع**" [12] صادر عن تكليف بالقول فلا يمكن تحليل هذا الحديث بمعزل عن قوله تعالى : **وقل ربي زدني علما" طه114** ففي الآية الكريمة أمر بالفعل "قل " موجه من الله عزوجل إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتكليف بقول دعاء الاستزادة من العلم، والرسول صلى الله عليه وسلم يوجه أفعالا كلامية طلبية مباشرة للمتلقين سلوا وتعوذوا.

[12] أخرجه ابن ماجه (3843)، قال البوصيري في الزوائد: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأسامة بن زيد هذا هو الليثي المزني، احتجَّ به مسلم"، وحسنه الألباني، كما في الصحيحة (1511)، قال شيخنا شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره (سنن ابن ماجه بتحقيق شعيب 15/5)، وهو في "صحيح ابن حبان" (82)، وانظر تمام شواهده في "مسند أحمد" (6557).

فالحديث ينطلق من الآية القرآنية ويبسط مفهومها أكثر ويقدم شرحا تفصيليا لها في شكل أقوال فعليه مباشرة بتقديم وصف للعلم بين النفع وعدمه وفي هذا إقرار ضمني أن العلم ينقسم إلى نافع وغير نافع من جهة وأن المسلم مطالب فعليا بالدعاء وسؤال الله علما نافعا وتعوذه به سبحانه من العلم غير النافع.

ب – تصنيف أفعال الكلام وقوتها الإنجازية في خطاب طلب العلم في الحديث النبوي الشريف:

– الإخباريات assertives:

التي يكون الهدف منها تطويع المتكلم حيث الكلمات تتطابق مع العالم وحيث الحالة النفسية هي اليقين بالمحتوى مهما كانت درجته ومثال ذلك سيأتي غدا[13] فهي إذن " أن نقدم الخبر بوصفه تمثيلا لحالة موجودة في العالم"[14]. ويدخل في هذا التصنيف معان مباشرة كالوصف والإخبار، ومعان غير مباشرة كالمدح والدعاء...إلخ.

ويطلق عليها كذلك التقريريات والإثباتيات والتأكيديات، عن **قيس بن كثيرٍ، قال: قدم رجلٌ مِن المدينة على أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديثٌ بلغني أنك تحدِّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أما جئتَ لحاجةٍ؟ قال: لا، قال: أما قدِمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا، قال: ما جئتَ إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمَن أخذ به أخذ بحظ وافرٍ[15]."**

بالنظر في هذه الأفعال التلفظية:

- **وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم.**

---

[13] فيليب بلانشيه:التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص66

[14] جون سيرل: العقل واللغةوالمجتمع، (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر، سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006، ص117.

[15] رواه أبو داود (3641)، والترمذي (2682) واللفظ له، وصححه الألباني كما في صحيح أبي داود: (2/ 694) برقم (096 – 3)، وقال محقق (جامع الأصول) الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط (8/ 6): إسناده حسن.

- **وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء.**
- **وفضلُ العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب.**
- **إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم.**

فإننا نصنفها ضمن صنف الإخباريات أو التأكيديات، فهي عبارة عن أخبار أو وصف لطالب العلم من منظور رؤية المتكلم الإسلامية وهي رؤية جديدة يقدمها المتكلم للمتلقين الذين يحملون مفاهيم سابقة مغايرة بدرجات متفاوتة للفعل التلفظي الجديد.ولهذا نلحظ توظيف المؤكدات بوفرة باعتبار المتلقي الذي يُحتمل إنكاره لما يتلقى.

إذا ما نظرنا لأفعالها الكلامية المباشرة، ولكن بالنظر في السياق كاملا فالمرسل لهذا الخطاب يحمل صفة الرسالة السماوية وبالتالي كلامه يحمل قوة إنجازية أكبر من غيره وبالتالي يتجاوز الخطاب الفعل اللغوي الإخباري إلى الفعل اللغوي التوجيهي، فيحمل المتلقي على وجوب طلب العلم ودفعه إلى السعي لتحصيله وأن الله سخر الكون كاملا للاستغفار له وأنه يحظى بمكانة توارث الأنبياء وأن الملائكة تضع أجنحتها عليه إرضاء له، فهذه المكانة الراقية في حد ذاتها محاججة تستنكر على الزاهد في طلب العلم زهده وتأمره ضمنيا بطلبه وتنهاه عن تركه.

- **التوجيهيات directives**:

غرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطَب إلى فعل شيء ما واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإدارة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوي هو دائما فعل السامع شيئا في المستقبل. ويدخل في هذا التصنيف الاستفهام.والأمر، والرجاء، والاستعطاف، والتشجيع، والدعوة، والإذن، والنصح، بل التحدي أيضا الذي جعله أوستن في أفعال السلوك[16]. أي أنها على حسب سيرل: "محاولة جعل المستمع يتصرف بطريقة تجعل من تصرفه متلائما مع المحتوى الخبري للتوجيه"[17].:"

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:سلُوا الله علمًا نافعًا، وتعوَّذوا بالله من علمٍ لا ينفع" [18]

[16]محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص79.

[17]جون سيرل:العقل واللغة والمجتمع، ص218.

[18] أخرجه ابن ماجه (3843)، قال البوصيري في الزوائد: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأسامة بن زيد هذا هو الليثي المزني، احتجَّ به مسلم"، وحسنه الألباني، كما في الصحيحة (1511)، قال شيخنا شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره (سنن ابن ماجه بتحقيق شعيب 15/5)، وهو في "صحيح ابن حبان" (82)، وانظر تمام شواهده في "مسند أحمد" (6557).

إذن: المحتوى القضوي للحديث يصنف ضمن التوجيهيات لما يتضمنه من فعلي الأمر "سلوا وتعوذوا " وهو أمر الغرض منه توجيه المتلقي نحو مايريده المتكلم، وهدفه جعل العالم يطابق الكلمات وكل توجيه في الواقع هو رغبة عن الامتثال للفعل الإنجازي، والتوجيه الحقيقي يكون من متكلم مكانته أعلى من المتلقي كما هو النموذج الذي أمامنا وعلى المتلقين الاستجابة، وإن كانت هذه الاستجابة متفاوتة الدرجة بين اللين والضعف.

عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما –: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"لا تَعلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا تَخيَّروا به المجالس، فمَن فعل ذلك فالنارَ النارَ"[19].

جاء الخطاب صريحا ومباشرا يحمل قوة إنجازية لأفعال الكلام ذات الطابع التوجيهي، يظهر ذلك في الفعل المضارع المجزوم بلا الناهية بغرض نهي المتلقي عن تعلم العلم بغير إخلاص النية لوجه الله وعدّد مجموعة من الغايات التي تدفع النفس لطلب العلم والتباهي أو ليماري السفهاء أو ليتخير به المجالس وبالتالي علمه لا ينفعه بل يضره أيما ضرر، إذ جاء في الخطاب وعد بدخول النار لمن تعلم العلم لتلك الغايات، وبالتالي يصنف الجزء الثاني من الخطاب ضمن الوعديات أو الإلزاميات.

- **الالتزاميات commissives**:

غرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص هو القصد، والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل، أي أن المتكلم لا يحاول التأثير في السامع[20]. ويدخل في هذا التصنيف أفعال الوعد والوعيد.

عن قيس بن كثيرٍ، قال: قدم رجلٌ مِن المدينة على أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديثٌ بلغني أنك تحدِّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أما جئتَ لحاجةٍ؟ قال: لا، قال: أما قدِمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا، قال: ما جئتَ إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومن في

---

[19] رواه ابن ماجه (254)، واللفظ له، وفي الزوائد: ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم مرفوعًا وموقوفًا، وهو عند الحاكم (1/ 86)، وقال الحاكم والذهبي: والرفعُ أصحُّ.

[20] محمود أحمد نحلة :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص79.

الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، **إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورّثوا العلم، فمَن أخذ به أخذ بحظ وافرٍ".**[21]

يصنف الحديث ضمن **الإلزاميات** فالخطاب عبارة عن شرط يصف صورة لإنسان سلك طريق العلم مخلصا فيه لوجه الله تعالى وجواب الشرط يتضمن مجموعة من الجوائز والثمار والمغريات المحفزة لتحقيق فعل الشرط من أجل بلوغ جوابه.فإذما التزم الإنسان بالشرط تحقق جوابه وهذا وعد من رسول الله الذي لاينطق عن الهوى، إذن معيارية الصدق والكذب في هذا الوعد غير واردة بالنسبة للمتلقي المسلم فكلامه صلى الله عليه وسلم كله صدق.

جملة الشرط: "من سلك طريقا يبتغي فيه علما" تضم شرطين متتابعين: أولها السعي إلى العلم وثانيهما اقتران الإخلاص بطلب العلم وغاية السغي خالصة لطلب العلم دون حاجة دنيوية

جملة جواب الشرط:" **سلك الله به طريقًا إلى الجنة**" تعد الجنة أعظم جزاء ينتظره المسلم ويعمل لتحقيقه، فتمثل حافزا ودافعا قويا لتحقيق الشرط من أجل بلوغ جوابه. ويحمل أسلوب الشرط محموعة من التقريريات الضمنية أهمها قيمة العلم في النظام الإسلامي، فالساعي إلى العلم هو ساع لبلوغ الجنة.

ويختتم الحديث بجملة شرطية كذلك " **فمَن أخذ به أخذ بحظ وافرٍ**" إذ تعد طالب العلم بالحظ الوافر وهي ملخص لمجموعة من الامتيازات المتتابعة التي يحظى بها طالب العلم كما وردت في الحديث.

يقع هذا الخطاب في مقابلة مع الخطاب السابق فكلاهما يحمل مقتضى لغويا متكاملا الأول جزاء المخلص في طلب العلم والآخر جزاء المرائي، فللأول الخنة وللآخر النار

"من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريق للجنة / فمَن فعل ذلك فالنارَ النارَ "

يمكن أن نقارن بين البنية اللغوية للخطابين ونلاحظ أولا الفرق في طول الجملتين الشرطيتين

إذ كان جواب الشرط في الخطاب الثاني على أسلوب التحذير :"النارَالنارَ وهو أسلوب يتميز بحذف الفعل وإبقاء منصوبه دالا عليه، ترهيبا من الفعل وتحذيرا منه مقارنة بالجملة الأولى التي تدل على أريحية المتكلم التي نقلها للسامع فطريق الجنة أيضا خير ويبشر به، أما التهديد والوعيد فقد جاء مقتضبا جازم التحذير.

وقال صلى الله عليه وسلم:"من سُئل عن علمٍ علِمه ثم كتمه، أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ من نارٍ".[22]

---

[21] رواه أبو داود (**3641**)، والترمذي (**2682**) واللفظ له، وصححه الألباني كما في صحيح أبي داود: (**2**/ **694**) برقم (**096 – 3**)، وقال محقق (جامع الأصول) الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط (**8**/ **6**): إسناده حسن.

[22] أخرجه: أحمد في المسند (**2**/ **263**، **305**)، في مسند أبي هريرة رضي الله عنه، وأبو داود في السنن (**4**/ **67 – 68**)، كتاب العلم

يتمثل المحتوى القضوي لهذا الخطاب في قالب جملة شرطية، فعلا الشرط وجوابه؛ سُئل وأُلجم مبنيان للمجهول ونائب الفاعل في تمثلات الجملة بنائيا أو المفعول به في العالم الواقعي غير صريح يتميز بالعموم إذ استعمل المتكلم الاسم الموصول "من " الدال على العاقل، لتعميم الفعل الالزامي من خلال توعد كل من ألجم علما آتاه الله إياه.

- **التعبيريات expressives**:

غرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات. وكل ما هو مطلوب الإخلاص في التعبير عن القضية ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب[23].أو هي كما يعبر عنها جورج يول في هذا السياق بأنها: "تعبير عن حالات نفسية، ويمكن لها أن تتخذ شكل الجمل، تعبر عن سرور أو ألم أو فرح أو حزن أو عمّا هو محبوب أو ممقوت"[24].

عن سعد بن أبي وقاص، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع"[25]

ففي قوله صلى الله عليه وسلم فضل العلم أحب إلى من فضل العبادة صيغة التفضيل "أحب" ففعل الإنجازي هنا فعل تعبيري يدل على المفاضلة بين حسنين والفعل التأثيري يتمثل في دفع المتلقي إلى العناية بالعلم أكثر من العبادة وأن تكون العبادة عن علم لا عن جهل.

- **الإعلانيات declarations**:

يتميز هذا الصنف عن باقي الأصناف بأن الأداء الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، كما أنها تحدث تغيرا في الوضع القائم.فضلا عن أنها تقتضي عرفا غير لغوي. واتجاه المطابقة في أفعال هذا التصنيف قد يكون من الكلمات إلى العالم words-to-world ومن العالم إلى الكلمات world-to-

(19)، باب كراهية منع العلم (9)، الحديث (3658)، والترمذي في السنن (5/ 29)، كتاب العلم (42)، باب ما جاء في كتمان العلم (3)، الحديث (2649)، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه نحوه، في السنن (1/ 96)، المقدمة، باب مَن سُئل عن علم فكتمه (24)، الحديث (261)[6].

[23]محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

[24]جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، سوريا، ط1، 2010، ص90.

[25] رواه الألباني في صحيح الجامع عن سعد بن أبي وقاص وحذيفة بن اليمان، الرقم 4214.

words ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص[26].

عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر"[27]

يصنف الخطاب ضمن الإعلانيات فالفعل القولي أو المحتوى القضوي لهذا الخطاب يتمثل في جملة اسمية مباشرة المسند إليه هو "العلم" والمسند فيها هو "فريضة " أي الحكم على العلم بالوجوب على كل مسلم، إذا عزلنا الجملة عن سياقها وافترضنا أن المتكلم ليس محمدا النبي صلى الله عليه وسلم أو افترضنا أن المتلقي لا يؤمن بالرسالة المحمدية، في هذا السياق فهي جملة خبرية تحتمل الصدق والكذب ولكن بمجرد وضعها ضمن سياقها الذي يبرز المرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي قام بفعل القول بناء على أمر أول من عند الله فالسياق الكلي للمنظومة الإسلامية التي تقر أن محمدا مرسل وأنه لا ينطق عن الهوى وبالتالي تخرج هذه الجملة عن صنف الإخباريات مطلقا إلى صنف الاعلانيات بدليل أن غرض الفعل الانجازي هنا ليس الاخبار ولكنه اطلاق حكم وجوب العلم على كل مسلم والفعل التأثيري عند المتلقي كان مطابقا لمقتضى الفعل الإنجازي فظهر على الأمة الاسلامية التأثير الإجابي والاستجابة الفعلية لتطبيق الحكم.

أما إذا نظرنا إلى الخطاب نفسه في سياق زمني آخر مع المحافظة على المرسل نفسه واتصاف المتلقي بصفة الإسلام والإيمان أن محمدا مرسل من عند الله وكلامه صلى الله عليه وسلم فرض إلا أن درجة التأثير ضئيلة جدا وتكاد تكون منعدمة وغياب الامتثال لتطبيق هذا الحكم، ومنه، وعلى الرغم من استمرارية الخطاب النبوي وتجاوزه حدود الزمان والمكان فقد فخفت تأثيره في نفوس الكثيرين فيما تعلق تحديدا في خطاب العلم. وهو السبب الرئيس لتراجع النظام الإسلامي ولن يسترجع قوته إلا باسترجاع ذلك التأثير والامتثال القطعي لحكم "**العلم فريضة**".

الخاتمة:

– تمثل هذه الخطابات الرؤية الإسلامية للعلم في إطار تأسيس نظام إسلامي متكامل أساسه توفير كل الأدوات المادية والمعنوية للعالم فهو:

- مطالب بالاستعانة بالدعاء لتحصيل العلم النافع
- العالم كله مسخر لخدمة العالم

[26]ينظر": محمود أحمد نحلة:آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

[27] أخرجه ابن ماجة(224)أوله في أثناء الحديث، والبزار (6467)، وابن عبد الرب مختصرا، وابن عبد الرب في جامع بيان العلم وفضله17

- العالم المسلم طريقه الجنة
- العالم خير من العابد
- العالم مطالب بنشر العلم وإلا مصيره النار

– خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم عن العلم نظاما كاملا لمفهوم العلم ومكانته وآدابه وحكمه وقد لاقت تأثيرا مميزا عند المتلقين الأوائل إلا أن هذا التأثير قد خفت تدريجيا إلى أن وصل باحتا في زماننا هذا، وبالتالي المنظومة الإسلامية حاليا مطالبة بخلق بيئة اجتماعية تمتثل إيجابيا للأفعال الإنجازية التي كان يقصدها الرسول الله صلى الله عليه وسلم واستعادة ذلك التأثير الفعلي المباشر الناتج عن الفعل الإنجازي للخطاب النبوي.

– تنوعت الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة بين الإخباريات والإلزاميات والتوجيهيات والتعبيريات والإعلانيات ولكنها جميعها في إيطار السياق الذي وردت فيه وباعتبار المرسل والمرسل إليه كانت غايتها التوجيه والتأثير في المتلقي إيجابا **ليغير عالمه بالكلمات**.

المصادر و المراجع :

1 التداولية من أوستين إلى غوفمان: فيليب بلانشييه.تر صابر حباشة.دار الحوار، سوريا، ط1، 2007.
2 مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، دط، 2020م.
3 مسعود صحراوي: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد 1432هـ-2011م.
4 محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2008م، ص181-182.
5 محمودأحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2002
6 علي محمود حجى الصراف، في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1431هـ-2010م.
7 آن روبول و جاك موشلار : التداولية اليوم، تر :سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر والطباعة، بيروت، ط1، 2003،
8 علي محمود حجى الصراف، في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص24.
9 أخرجه ابن ماجه (3843)
10 جون سيرل: العقل واللغةوالمجتمع، (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر، سعيد الغانمي، منشورات

الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006.
11 جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، سوريا، ط1، 2010
12
Jacques Moeschler, Antoine Auchlin : Introduction à la linguistique contemporaine, 2e éd., Armand Colin, Paris 1997-2000, p. 135.

.